الإعجاز البياني في القرآن الكريم
سورة الكوثر نموذجاً

د. صالح بن عبد الله الشترى(*)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والفريدة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، فلم يُقيد بما قيّد به غيره من المعجزات، فهو كلام الله المعجز في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحِكَمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، ففي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفروع، قد تحدى المولى سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد النبي الأمي صلوات ربي وسلامه عليه العرب قاطبة بإعجازه، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نبتته.

لقد بهر القرآن الكريم العقول بما حواه من وجوه الإعجاز، ففيه الإعجاز العلمي الكوني، والإعجاز التشريعي الفريد، والإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الغيب في المستقبل، وكذلك الإعجاز البياني البلاغي المتمثل في أسلوبه ونظمه وتركيبه اللغوي، فهو المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد.

نعم، إن العرب الذين تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثل كتابه العزيز كانوا فقط مضرب المثل في الفصاحة والبلاغة وإحكام البيان وسبكه، ولأجل ذلك تحداهم الله تعالى من جهة ما تميزوا به، وضلعوا فيه، وهذا بحق أظهر للعجز، وإعلان لقيام الحجة عليهم حيث زعموا أن القرآن الكريم كلام بشر.

لقد كان للقرآن تأثير عظيم في الدراسات الأدبية والبلاغية، وحتى النقدية، فقام العلماء منذ القرون الأولى بدراسته وتحليل ألفاظه وتراكيبه، وطبقوا ذلك على كلام

(*) استاذ مشارك بقسم اللغة العربية بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض – المملكة العربية السعودية .

العرب، وألفوا في ذلك المصنفات، ولا زال العلماء يقتبسون من نوره الذي بهر الأوليين والآخرين في بلاغته وفصاحته، وهذه دراسة موجزة تفتح باب هذا الموضوع المهم، الذي يقوم على التحليل والتطبيق، لأن ذلك هو حياة البلاغة ونماؤها.

في هذا البحث سنقف وقفات موجزة لأن لسان حال البحث العلمية المحكمة (خير البحوث ما قل ودل)، ولسان حالي في هذا البحث (ما لا يدرك كله لا يترك جله)، وعليه ستكون وقفاتي في هذا البحث على النحو التالي:

المبحث الأول: وقفة مع الإعجاز.

المبحث الثاني : تأملات في مصنفات علماء الإعجاز القرآني.

المبحث الثالث : أساليب دراسة الإعجاز البياني في القرآن الكريم

المبحث الرابع : نموذج تطبيقي لتحليل سورة الكوثر.

المبحث الأول : وقفة مع الإعجاز

تعرف المعجزة بأنها الأمر الخارق للعادة السالم عن المعارضة المقرون بالتحدي، والتي تفيد العجز عن الإتيان بالمثل، وفي اللغة:قال صاحب القاموس: (وأعجزه الشيء: فاته، وأعجز فلاناً: وجده عاجزاً وصيّره عاجزاً، والتعجيز: التثبيط والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة)[1].

وقال في التبيان: (الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾[2]، وتسمى المعجزة بهذا الاسم؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنه أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين

---

(١) القاموس المحيط، للفيروزبادي:٦٦٣.

(٢) سورة المائدة، آية:٣١.

عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن)[1].

شروط المعجزة:

١- أنها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية.

٢- أنها أمر مقرون بالتحدي للمكذبين أو الشاكين، ولا بد أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله، وإلا فإن التحدي لا يتصور.

٣- أنها أمر سالم من المعارضة، فمتى أمكن لأحد أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله بطل أن يكون معجزة.

وهي على نوعين: حسية وعقلية.

والملاحظ أن أكثر معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، بينما نجد المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية، ونعني بهذه المعجزة: القرآن، وهناك معجزات أخرى للنبي صلى الله عليه وسلم جاء في الصحيح أخبارها وهي كثيرة، ولعل مرد ذلك إلى أن هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى إلى أبد الدهر.. إلى يوم القيامة؛ ومن أجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان، وهكذا فإن معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام قد انقرضت بانقراض أعمارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، بينما معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة[2].

فالقرآن معجز لأنه سالم من المعارضة الصحيحة ، فلو أزيلت لفظة من القرآن ودارت عليها لغة العرب لتأتى بأخرى أفضل منها أو حتى مثلها ، لما وجدت. ونقول أن القرآن طالب العرب أن يأتوا بمثله: قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ

---

(١) انظر: التبيان في علوم القرآن، لمحمد بن علي الصابوني:٩٣.

(٢) انظر: لمحات في علوم القرآن لمحات، لمحمد بن لطفي الصباغ:٧١-٧٩.

عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] ، فعجزوا عن الإتيان بمثله.

ولما كبلهم العجز عن هذا، جاءهم بتخفيف التحدي، فطالبهم أن يأتوا بعشر سور، منه فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] ، ثم أرخى لهم حبل التحدي ، ووسع لهم غاية التوسعة فطالبهم أن يأتوا بسورة واحدة، أي سورة ولو من قصار السور، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3] ، فعجز أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة واحدة مثل أقصر سور القرآن الكريم. ولأن القرآن قال : (فأتوا بسورة) يعنى هذا ولو بمقدار أقصر سورة منه.

ولأن سورة الكوثر هي أصغر صور القرآن الكريم ، فالتحدي قائم بها. وتطبيقاً لما قلنا فإنه لو أزيلت لفظة واحدة من سورة الكوثر ودارت لغة العرب عليها لتأت بلفظة أخرى أفضل منها أو حتى مثلها لما وجدت.

المبحث الثاني : تأملات في مصنفات علماء الإعجاز القرآني

عرفنا في حديثنا عن مكمن الإعجاز أن الإعجاز المتحدى به هو إعجاز القرآن من حيث لغته وأسلوبه وبلاغته. ولعلنا نطلع على هذا النوع من الإعجاز بتفصيل أكبر، مع متابعة جهود العلماء فيه

فقد توجه العلماء إلى بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم وخطبهم وكلامهم المنثور، ودراسة بعض النماذج دراسة بلاغية ، ثم مقارنتها بما ورد في القرآن الكريم ؛ لإثبات أنه نوع فريد متميز يفوق كل ما عداه، وقاموا أيضاً بدراسة نماذج من الآيات الكريمة، وبيان طريقة نظم الألفاظ، واختيار الكلمات للدلالة على المعاني الجليلة، وفيما يأتي تتبع تاريخي لمسيرة الإعجاز وبصورة موجزة وسريعة:

---

(١) سورة الإسراء، آية:٨٨.

(٢) سورة هود، آية:١٣.

(٣) سورة يونس، آية:٣٨.

يعد أوّل من دوّن في بلاغة القرآن الفراء وأبو عبيدة في كتابيهما "معاني القرآن"، و"مجاز القرآن"، وكان فيهما لمحات وإشارات بلاغية، وكانت مبثوثة في ثنايا الكتابين.

وفي القرن الثالث الهجري ألف الجاحظ كتاب "نظم القرآن" وهو مفقود، كما ظهر كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة الذي تناول فيه بعض القضايا البلاغية، وأشار إلى أن لغة العرب أكثرها مجاز.

وفي القرن الرابع الهجري ظهر كتاب "بيان إعجاز القرآن" للخطابي، وركز فيه على الجانب البياني في القرآن الكريم، و أشار إلى ما يتميز به القرآن من الفخامة والعذوبة ، كما حدد وجها جديدا يتصل بالعامل النفسي الوجداني ، فحين يطرق الأسماع يصل إلى القلوب، فتأنس بما له من لذة وحلاوة ، ومن هنا كان إسلام عدد من كبار قريش أو عامة الناس، وظهر أيضا كتاب "النكت في إعجاز القرآن" للرماني، وتحدث فيه عن الإيجاز.

وفي القرن الخامس الهجري ظهر في مطلعه كتاب "إعجاز القرآن للباقلاني" الذي ناقش الآراء المخالفة ورد عليها ، وأكد على أهمية البحث في إعجاز القرآن، لأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على دلالة معجزة القرآن، وحدد إعجاز القرآن بما فيه من البديع ، لا يعني البديع بالمصطلح المستعمل حاليا، وقد أجمل وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة هي: الإخبار عن الغيوب، الإنباء عن قصص الأولين، براعة النظم والتأليف والرصف البديع.

وفي ذلك القرن كان الإمام عبد القاهر الجرجاني صاحب "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، الذي فتح بهما باب البلاغة التطبيقية على كتاب الله تعالى، وقد أوضح أن سر إعجاز القرآن كامن في نظمه ، وأن النظم هو توخي معاني النحو ، فركز على المعنى ، ولم يترك دراسة اللفظ كما زعم بعض الباحثين، وبذل جهدا كبيرا في كتابيه لتبيين هذه النظرية ، ورد آراء القائلين أن الإعجاز في الغيبيات، أو خفة الحروف، أو اللفظ وحده، أو المعنى أو الإيقاع[1].

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ٥٨.

ويمكن القول إن النظم هو : تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيرة والموضوعة في أماكنها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

أما في القرن السادس الهجري فقد ظهر كتاب "الكشاف عن غوامض آي التنزيل" للزمخشري، وهو في التفسير البياني للقرآن ، ووضح فيه تطبيق أمثلة لما سماه عبد القاهر بالنظم.

بعد هذه الفترة بدأ عصر الجمود، بحسب تعبير بعض الكتاب، حيث صارت البلاغة علماً جامدا، وانتقلت من كونها فناً خالصاً ذا علاقة بالذوق والحس إلى علم تجريدي منطقي.

وفي العصر الحديث ظهر علماء وكتّاب أولوا اهتماماً كبيراً للإعجاز القرآني، ومن أبرزهم:

مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" وهو يرى أن الوجه الأساس للإعجاز هو في النظم ، مع وجود وجوه أخرى ومظاهر الإعجاز في النظم عنده ثلاثة: الحروف وأصواتها ، الكلمات وحروفها، الجمل وكلماتها

محمد عبد الله دراز صاحب كتاب "النبأ العظيم"، وقد أوضح أن أوجه الإعجاز في كتاب الله تعالى هي: الإعجاز اللغوي ، وبه وقع التحدي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، وقد قسّم أسلوب القرآن إلى: "الصدف": القشرة السطحية ولاحظ فيها جمال اللفظ القرآني وحسن وقعه وتنسيقه، "اللؤلؤة" لب البيان القرآني.

سيد قطب، سجل وجها جديدا للإعجاز، هو التصوير الفني وعبر عن إعجاز القرآن البياني بسحر القرآن وذلك في كتابه "نظرية التصوير الفني في القرآن".

بنت الشاطئ، ولها كتاب "الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق" تحدثت فيه عن فواتح السور، وعن سر الحروف ، ودلالات الألفاظ، وسر الكلمات، وعالجت فيه قضية الترادف.

ولا يزال العطاء مستمراً إلى قيام الساعة، فهو المعين الذي لا ينضب، والبحر الذي لا ينتهي.

ولأجل ذلك إذا قرأنا تاريخ العرب في عصر نزول القرآن، نجد أن الجيل الذي نزل فيه القرآن كان قد بلغ في القدرة على الإبانة عن نفسه حداً لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كله، ويكاد يجمع أهل العلم على أن ذلك الجيل والأجيال قبله، هم الذين " فجروا للناس ينابيع الكلام"[1].

ولا ريب أن القرآن لما جاء بهذا اللسان خارجاً عن سنن كلام الناس أخرج هذا اللسان نفسه عن سنن لغات الناس، وهذا الذي أحدثه القرآن في العربية ليس في غيرها من لغات الأرض، وما عرف تاريخ اللغات لغة عاشت في أفواه أجيال البشر عمراً مديداً كهذا اللسان[2].

وبصورة موجزة نقول: إذا تأملنا ما دونته صفحات الإعجاز في تاريخ البلاغة نجد أنها مرت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: كلام غامض في أوصاف الشعر وبلاغة الكلام جرى على لسان الكتاب، وحذاق الشعراء والعلماء والبلغاء، كطبقة الجاحظ.

المرحلة الثانية: مرحلة عبد القاهر، فقد كان وحده جيلاً وعصراً ومرحلة، وقد استطاع بصبره وانقطاعه وشغله أن يكشف ضباب هذه اللغة.

المرحلة الثالثة: لم تكن مرحلة استخراج ولا مجاهدة في كشف المعرفة، وإنما كانت مرحلة تصنيف وتحرير وتبويب، وكان هذا ضرورياً لاتساع العلوم وحاجتها إلى هذا، فظهرت المتون والشروح والحواشي والتقارير، وهي مرحلة لا تقل أهمية عن المراحل السابقة، لأن عطاءها ليس في صلب المعرفة البلاغية فحسب، إنما يمتد إلى تثقيف العقل، وتدريبه على النظر والتدقيق والمراجعة إلى آخر ما يعرفه أهل العلم من تلك المصادر التي يهاجمها من يعجز عن قراءة شيء منها والله أعلم[3].

ومما يشار إليه في هذا الصدد أن الذي استصفى من كلام عبد القاهر ووضع منهج الدراسة البلاغية، وحدد علومها الثلاثة، وحدد المسائل داخل هذه العلوم، هو

---

(١) انظر: الإعجاز البلاغي لأبي موسى: ١٥.

(٢) انظر: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم لأبي موسى: ١٢-١٣.

(٣) انظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر لأبي موسى: ٤٩_٥٠.

السكاكي وهو رجل واحد أصاب وأصاب، ولكنه ترك من علم الشيخ علماً نافعاً لم يدخله في الدراسة البلاغية، وقد مضينا على طريق السكاكي، لأن البلاغة بأبوابها المعروفة يجب أن تكون كذلك في الدرس والتعليم[1].

المبحث الثالث : أساليب دراسة الإعجاز البياني في القرآن الكريم

أجمع العلماء على أن نزول القرآن بهذا اللسان العربي، يدل على بلوغ العربية مرتبة أعلى من حيث توفر وسائلها وثراء طاقاتها المتمثلة في أحوالها، وخصائصها التي تقع عليها صور سبكها من حيث المفردات والتراكيب وقد أشار إلى ذلك ابن جني في الخصائص، الذي كان متمكناً من اليونانية لأنه رومي، ولأن شيخه أبا علي الفارسي كان متمكناً من الفارسية، وهما أزهى لغتين بعد العربية في ذلك الزمن[2].

يذكر ابن جني أنه كلما أمعن في دقائق العربية وما تنطوي عليه من حكمة، ودقة، ورهافة في سياسة المعاني، وحيازتها، وتدسسها في غوامض القلوب والنفوس، وملامستها لأوابد الخواطر، وشوارد الأفكار قوي في نفسه أن في هذه اللغة أمراً إلهياً[3].

والمدقق في تحليل كلام علمائنا في هذا الباب يجد كلامهم قد بدأ من القرن الثالث، وهو في قضية الإعجاز يتجه وجهتين:

وجهة تبحث عناصر البلاغة المشتركة بين القرآن وكلام الناس من شعر وخطب ووصايا وغير ذلك، ثم تدل على أن هذه العناصر في القرآن بلغت من الدقة والسمو والغزارة والإصابة مبلغاً يفوت الكلام كله، ويقطع أطماع أصحابه، ويقهر قواهم، ويقضي عليهم بالعجز الشامل المطبق الذي تستوي فيه الأقدام، فإذا كانت البلاغة في الشعر والأدب تدور حول التشبيهات والمجازات والأمثال، والكنايات

---

(١) انظر: البلاغة عند السكاكي، لأحمد مطلوب: ٢٧.

(٢) انظر: الإعجاز البلاغي: ١٣.

(٣) الخصائص لابن جني: ١/٣٤٣، ٤٧، ٢٤٢.

وفنون النظم، فإن هذه الفنون نفسها هي التي بني عليها القرآن، لأنها أصول بلاغة اللسان، ولكنها في القرآن شيء، وفي الشعر شيء آخر.

فإذا جمعت ما دبجته ألسنة الشعراء من فائق التشبيهات، وراقك ذلك، وحسن عندك، وكثر بين يديك، ثم وضعت بإزائه واحداً من تشبيهات القرآن، رأيت البلاغة العالية في الأدب والشعر منطفئاً ضياؤها، وكأن شرط بهائها ألا توضع بإزاء القرآن[1].

وإذا علمنا أن المسائل البلاغة كانت متناثرة في كتب العلماء في القرون الأولى، ولم يصبح لها كيانها في عصر عبد القاهر الجرجاني ومن جاء بعده، ثم أخذت الدراسات تتنوع وتتشكل في دراسة الإعجاز البلاغي في كتاب الله تعالى، فعلماء التفسير تناولوا مسائل الإعجاز بين مسائل التفسير، ويعد التفسير الكبير، وروح المعاني، والبحر المحيط، وتفسير أبي السعود، والتحرير والتنوير، من أبرز كتب التفسير التي تناولت أسرار الإعجاز في كتاب الله تعالى.

وتناول علماء المتشابه اللفظي أسرار الإعجاز القرآني، ووضعوا آيات في مقابلة آيات أخرى مشابهة لها، وفتقوا باباً في غاية الأهمية في العناية بأسرار الكتاب العزيز، وبيان إعجازه وأثره البلاغي في تحليل النصوص،. ويعد كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، و"البرهان في متشابه القرآن" للكرماني، و"ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، أبرز كتب المتشابه اللفظي التي قامت على التحليل الدقيق والنظر البعيد لألفاظ القرآن الكريم.

يذكر الدكتور محمد أبو موسى أن الناظر في تلك الملاحظات التي ذكرها علماء البلاغية المتقدمين يجد أثرها وفاعليتها إذا وصلت الفكرة إلى جوهر المراد بها، وذلك بتجلية غوامضها، وأن يلحّ الدارس على تلك الفكرة بالأسئلة، حتى يصل إلى ما في المكمن، فإذا قرأنا وصف الألفاظ بالحلاوة، والنصاعة والعذوبة، فلا يجوز أن تلوك ألسنتنا هذا الوصف من غير أن نستيقن المراد به، وما معنى أن يكون اللفظ حلواً؟ ومن أين تأتيه العذوبة؟ وهل تأتيه من جرسه، ولفظه، أم تأتيه من الوضع

---

(١) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري البلاغة القرآنية، لأبي موسى: ٣٠.

اللغوي ودلالته المعجمية؟ وهل تتفاوت الألفاظ في أجراسها، ودلالتها اللغوية، تفاوتاً يحدث بينها هذه البينونة؟ هل تقبل عقولنا هذا وترضاه؟ أن وراء هذا الكلام مغزى آخر؟ وللفكرة نبع يجب أن نتجشم الوصول إليه؟ ثم نفحص اللغة التي نقرؤها، والبيان الذي تواصفوه بهذه الصفات، ونرقب الدلالات، وكيف تنبثق الألفاظ عن رغائب المتكلمين، هل حملت الألفاظ هذه الرغائب والمقاصد على متونها إلى عقولنا، أم أنها نبهت بألفاظها إلى شيء، هذا الشيء هو الآخر نبه إلى شيء آخر، وأن اللغة لم تحمل إلينا معاني قائليها، وإنما حملت غلينا "بطاقة" تعريف بهذه المقاصد، وقالت لنا ابحثوا بهذه البطاقة عن مضمون ما قال شاعركم، أو خطيبكم[1].

الوجهة الثانية نجدها في مسألة النظم، وقد أخذت قضية النظم حيزاً كبيراً عند عبد القاهر الجرجاني، والخطابي، وأبي بكر محمد بن الطيب، والقاضي أبو الحسن عبد الجبار، وعليها تقوم دراسة الإعجاز في كتاب الله تعالى، وتحليله، ومعرفة أسراره ودلالاته.

فجاء النظر في المفردات: وذلك بالنظر لملاءمة الكلمة لموقعها، ووضع كل نوع من الألفاظ في موضعه، وهذا حاصل في ملحوظات الجاهليين في تحليل الشعر وتقويمه، ، وهو ما نطلق عليه اختيار الكلمة دون غيرها من الكلمات. وكذلك النظر في أحوالها في الجمع والإفراد، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، وكذلك النظر في دلالات حروف المعاني وأدوات الربط، يقول أبو موسى في حديثه عن الزمخشري " لقد رأيت للزمخشري في هذه الصدد تراثاً ضخماً ومفيداً، وقد طال نظري وتأملي لهه الوقفات، فوجدت بعضاً منها اهتم بمادة الكلمة، أي: بمعناها المفاد من مادتها، وبعضاً منها يهتم بهيئة الكلمة أي: بمعناها المفاد من هيئتها، وبعضاً منها يهتم بحروف المعاني وأدوات الربط، وبعضاً منها يهتم بما يفيده تعريفها بأي نوع من أنواع التعريف، وبعضاً منها يهتم بمعاني تنكيرها"[2].

---

(١) انظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر: ٧٧-٧٨.

(٢) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٢٦١.

وجاء النظر في الجمل: ويتناول ذلك بيان أثر التقديم والتأخير سواء كان في الألفاظ أو الجمل وأسرار ذلك ودلالاته، وكذلك الذكر والحذف بكل أشكاله وصوره من ضمائر وأسماء ظاهرة، فهو يشمل دراسة الجمل والفقرات في علم البلاغة. وكذلك بحث الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات، ودراسة المعاني الملائمة بعضها لبعض، وكذلك بحث اختصار القصص، وبحث التكرار الذي يعد مثالاً بارزاً في أسلوب كتاب الله تعالى.

ونظر العلماء في صور البيان من تشبيه ومجاز بأقسامه، والكناية والتعريض، وإن كانت هذه موضع اهتمام المنشغلين بدراسة الأدب ونقده، وهذه الدراسة كانت أوفر حظاً من الدراسة الخاصة بجمال النظم، التي اعتمدت على بحث الألفاظ والجمل والتراكيب ودلالاتها، ونظروا في ألوان البديع وأبرزوا أثرها الفني في النصوص.

المبحث الرابع : الإعجاز البياني في سورة الكوثر

إن التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمراً هيناً، لأنها هي حياته ونماؤه، وتتركز فيها قدرة البليغ ومهاراته، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أن تجمع في صفحات، لكن المهم هو التطبيق والنظر في النص المدروس وتحليل تركيبه، وإبراز محاسن صياغته، ودلالات خصوصياته.

والذي يعين على ذلك الحس المرهف، والذوق المتمرس الرفيع، وهذا التحليل المبني على التذوق هو أصح المناهج وأقومها في دراسة البلاغة، فإذا تخلف الذوق، كانت أصولاً علمية شاحبة، كما هي في كتاب المفتاح، وإذا تخلفت القدرة على التحليل والتفسير كانت ضرباً من التحكمات الشخصية، تدفع بها إلى متاهات غير منضبطة، وليس التطبيق في مسائل البلاغة كالتطبيق في مسائل النحو والعروض، وذلك لأنه يسهل على النحوي أن يطبق فكراً وأصولاً نحوية على نص يدرسه، ويصعب على البلاغي أن يطبق أصولاً بلاغية على نص يدرسه، وتحديد المراد من الخصائص

البلاغية لا يتأتى إلا بالحس الأدبي، ولهذا كان تذوق النص الأدبي جزءاً من منهج الدراسة البلاغية[1].

ولعلنا نُتوّج هذا البحث الموجز بذكر أنموذج تطبيقي لتحليل أقصر سورة في القرآن الكريم، والتي لوكتبت فيها مجلدات لما أوفتها حقها، ولكنه الإيجاز الذي لا بد منه في مثل هذه البحوث العلمية.

بين يدي السورة:

١- ورد في أسباب النزول أن السورة سورة مكية، ومدنية على اختلاف في الروايات [2]، والأظهر ما ذكره ابن عاشور في تحليل هذا الخلاف، حيث يقول: (تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضا شديدا، فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتاب النشر قال: أجمع من نعرفه على أنها مكية. قال الخفاجي: وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها. وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة هي مدنية ويشهد لهم ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: أنزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وأنحر إن شانئك هو الأبتر﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة الحديث. وأنس أسلم في صدر الهجرة فإذا كان لفظ (آنفا) في كلام النبي ﷺ مستعملا في ظاهر معناه وهو الزمن القريب، فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا.

ومقتضى ما يروى في تفسير قوله تعالى ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أن تكون السورة مكية، ومقتضى ظاهر تفسير قوله تعالى ﴿وانحر﴾ من أن النحر في الحج أو يوم الأضحى تكون السورة مدنية ويبعث على أن قوله تعالى ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ ليس ردا على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك. والأظهر أن هذه السورة مدنية

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٣٧

(٢) انظر: البحر المحيط: ٥١٩/٨، وفتح القدير للشوكاني: ٥/ ٥٠٢، ورح المعاني: ٤٧٨/١٥.

وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها. وعلى القول بأنها مكية عدوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر. وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية)[1] .

٢- يسبقها في ترتيب المصحف سورة الماعون ويليها سورة الكافرون، ولنا وقفة مع هذا الأمر.

٣- عدد آياتها ثلاث آيات.

٤- عدد حروفها: اثنان وأربعون حرفاً (برسم المصحف) وثلاثة وأربعون حرفاً بالرسم الإملائي.

٥- موضوعها: هو الانتصار للنبي ﷺ ، كما يدور محور السورة حولَ فَضلِ الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخيرَ الكثيرَ وَالنعمَ العظيمةَ في الدنيا وَالآخرة ، وَمنها (نهرُ الكوثرُ) وغير ذلك من الخير العظيم العَميمِ، وقد دَعت الرسول إلى إدامة،الصلاة ، ونحر الهدي شكراً لِلّه. فاشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة.

وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى لأنهم أبغضوا رسوله، وغضب الله بتر لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله.

ومن اللمحات في موضوع السورة: الربط بينها وبين سورة القلم والضحى؛ لأن كل سورة من سور القرآن الكريم تعبر عن وحدة مستقلة بذاتها ، ويكون فيها فكرة تقوم بتبليغها وتدور حولها. كما يكون لكل سورة علاقة بما قبلها وما بعدها من السور الموجودة في المصحف الشريف.

وسورة الكوثر لها موضوع تقوم بتبليغه ألا وهو الانتصار للنبي ﷺ، ما أنها سورة العطاء ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ولكن نلاحظ أنها ليست هي السورة الوحيدة التي تتحدث عن هذا العطاء وتبشر به، فقد ذكر الوعد بالعطاء في سورة القلم حيث يقول

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٣٧

تعالى : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ،ويقول تعالى في سورة الضحى : ﴿وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وفي سورة الكوثر يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وإذا تدبرنا هذه الآيات الثلاثة وسورها نجد إشارات عظيمة منها:

أولاً : ترتيب هذه السور في المصحف هو نفس ترتيبها في النزول : القلم ثم الضحى ثم الكوثر.

ثانياً : أن ترتيب العطاء في السور الثلاث يتوافق مع ترتيب السور، ففي سورة القلم يقول ربنا : ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ ثم في سورة الضحى يقول : ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ثم في سورة الكوثر يقول : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾.

٦- من لطائف سورة الكوثر، وإن كان لا يركن لذلك كثيراً، أنها جاءت مكونة من عشر كلمات، فالمتأمل أن القرآن قد أعجز المشركين أن يأتوا مثله ، فلما عجزوا طالبهم أن يأتوا بعشر سور منه، أو من مثله وأن يستعينوا بالإنس والجن ، فلم يستطيعوا ، ثم أرخى لهم حبل التحدي على غاربه، حتى طالبهم أن يأتوا بسورة مثله وأن يدعوا من استطاعوا من شركائهم من دون الله فعجزوا، ثم تأتى هذه السورة منظومة من عشر كلمات ، وكأن الله قد أبدل ذلك بسورة مكونة من عشر كلمات، يعنى كل سورة من السور العشر استبدلها - فى التحدي - بكلمة واحدة من كلمات هذه السورة. مما يشير إلى أن السورة قد جاءت مكتملة العناصر والأركان ومكتملة بعناصر التحدي والإعجاز، ولبعض الباحثين حديث طويل عن الإعجاز العددي في السورة ليس هذا مقام بسطه، كالحديث عن حروفها والضمائر بأنواعها، ولفظ العشرة، والعطاء.

ومن اللطائف الربط بين السورة وبين السورة المتقدمة وهي سورة الماعون، فتأمل المقابلة البلاغية الجميلة بين السورتين تجد الترابط في السياق،فكأن السورة تتمة لما قبلها وكالأصل لما بعدها، وهذا ما يعبّر عنه بالفصل والوصل في الباب البلاغي، فتأمل أوصاف المنافقين في سورة الماعون، البخل في قوله: ﴿ يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ

عَلَى طَعَامِ الْمِسكِينِ﴾، ترك الصلاة في قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾، والمراءاة في الصلاة في قوله:﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾،والمنع من الزكاة في قوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، وجاء في مقابلتها في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ﴿فَصَلِّ﴾، ﴿لِرَبِّكَ﴾، ﴿وَانْحَرْ﴾، مرتبة كالسورة المتقدمة في الأوصاف[1].

٧- سنقف ثلاث وقفات،لكل آية وقفة، وكل وقفة فيها تأملات للإعجاز، نستعرض فيها:

- النظر في سبب نزول السورة.
- مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، مع الربط بين سبب النزول ودلالات السياق المتقدم والمتأخر.
- النظر في دلالات الألفاظ، من حروف ومفردات وتراكيب.
- بعض النكت ذات الصلة بإعجاز السورة.

سبب نزول السورة:

١- قال ابن عباس نزلت في العاص وذلك أنه رأى رسول الله يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تحدث قال ذاك الأبتر يعني النبي" صلوات الله وسلامه عليه" وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله وكان من خديجة وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر فانزل الله تعالى هذه السورة.

٢- حدثني يزيد بن رومان قال كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾ إلى آخر السورة، وقال عطاء عن ابن عباس كان العاص بن وائل يمر بمحمد ويقول: إني لأشنأك وإنك لأبتر من الرجال فأنزل الله تعالى﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ من خير الدنيا والآخرة.

٣- حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة -واللفظ له- حدّثنا علي بن مُسهر عن المختار عن أنس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهُرنا إذ أغفَى ثم

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي: ٣٢/١١٠.

رفع رأسه مُتبسّماً فقُلنا ما أضحكك يا رسول الله قال ((أُنزِلت عليّ آنفاً)). فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾. ثم قال "أتدرون ما الكوثر "فقُلنا الله ورسوله أعلم. قال "فإنه نهرٌ وَعَدَنيهِ ربّي عزّ وجل عليه خيرٌ كثير هو حوضٌ تَرِدُ عليه أمّتي يوم القيامة آنيتُهُ عدد النجوم فيُختلجُ العبد منهم فأقول ربِّ إنه من أُمّتي .فيقول ما تدري ما أحدثت بعدك". زاد ابن حجر في حديثه بين أظهُرنا في المسجد. وقال "ما أحدث بعدك"، وورد هذا المعنى في سنن أبي داود والنسائي والبيهقي ومسند أحمد[1].

سبب اختيار السورة في البحث:

١- أن السورة هي أقصور سورة في القرآن الكريم، وجاء التحدي بالإتيان بسورة من مثله، وأقصر السور سورة الكوثر.

٢- سبب نزول السورة فقد ورد أنها نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في إغفاءة غفاها بين أصحابه ، كما ورد في صحيح مسلم، وهي السورة التي تميزت بهذه الصفة في نزولها على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك فاليقين أن هذا البحث الموجز لا يمكن أن يفي بآية واحدة بل ولفظة واحدة من السورة فضلاً عن كل السورة كاملة، ولكنها إشارات وإضاءات تعين الفهم والتدبر، وتفتح الباب جلياً لمثل هذه الدراسات

وقفات مع الإعجاز البياني في السورة:

الوقفة الأولى: قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾

جاء افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر. والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ، وقد جاء هذا الافتتاح في أكثر من سورة، وهو افتتاح لأمر عظيم ومنة كبيرة لا تعدلها منة، كقوله في سورة القدر﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، وفي سورة الفتح ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.وفي سورة نوح ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الإخبار بعطاء

---

(١) انظر: صحيح مسلم، حديث: ٩٢١ ، ومسند الإمام أحمد: ١٠٢/٣

سابق. وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم، وهذا ما نلحظه في السور التي ابتدأت بمثل هذا الافتتاح.

وقد ذكرت آنفاً ما أفادت به السورة في باب الفصل والوصل وتأثير الحرف التأكيد (إنّ) في ذلك مما أوجد انسجاماً وتناسقاً بين السورة وبين التي قبلها وما بعدها من السور. ثم انظر للضمير (نا) وهو للمتكلم الجمع الذي يشعر بالامتنان وعظيم العطاء، بل وتعظيم المتكلم وهو الله جل جلاله، فوصف التعظيم شمل المتكلم والعطاء ومنه نهر الكوثر فتطلب السياق التعبير بذلك الجمع.

ثم تأمل التقاء الضمير (نا) مع حرف الهمزة في (أعطيناك) حيث المد المنفصل، مع حرف الغنة في (إنّ)، كما أن حرف الهمزة بدأت فيه السورة وهو من حرف الحلق وهو أشد الحروف، وكل ذلك يقدم للكلمة دفعة قوية في التأثير السمعي، أو ما يطلق عليه الجرس وأثره في بناء الكلمة وتأثيرها على السامعين.

والكوثر: اسم في اللغة الخير الكثير ومنه القرآن [1]، صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالبا نحو الكوكب، والجورب، ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع هنا فيها مادة الكثر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى[2]، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة[3]، وهو أحسن ما فسر به وأضبطه.

ويوصف الرجل صاحب الخير الكثير بكوثر من باب الوصف بالمصدر وهو مأثور عن العرب في شعرها ونثرها، وسمي نهر الجنة كوثرا، كما في حديث مسلم عن أنس بن مالك المتقدم آنفا.

وقد فسر السلف الكوثر في هذه الآية بتفاسير أعمها أنه الخير الكثير، وروي عن ابن عباس قال سعيد بن جبير فقلت لابن عباس: إن ناس يقولون هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير. وعن عكرمة: الكوثر هنا: النبوءة والكتاب، وعن الحسن: هو القرآن، وعن المغيرة: أنه الإسلام، وعن أبي بكر بن عياش: هو كثرة

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: ٣/٢٩٥

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٥٧٣:

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري: ٤/٢٩٠

الأمة، وحكى الماوردي: أنه رفعة الذكر، وأنه نور القلب، وأنه الشفاعة[1]. وكلام النبي صلى الله عليه وسلم المروي في حديث أنس لا يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره.

وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر، إبطالا لقولهم[2].

ثم انظر للتنوع البلاغي فبدأت السورة بالخبر المؤكد بإنّ، ونا الدالة على الفاعلين، وبالجملة الاسمية التي تعني الثبات، وتأمل التنوع في الصياغة في (أعطى)، و(صل) و(انحر)فالعطاء متقدم ومستمر، وهي في الماضي والحاضر والمستقبل، وفيها الحث على فعل الخير ومداومة الطاعة والعبادة لله تعالى الذي له الفضل أولاً وآخراً.

الوقفة الثانية: قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر﴾

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فهذا العطاء مستوجب للمأمور به، فهو تفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربه عليها، فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته[3].

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر، فإن الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال تعالى ﴿أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى﴾[4] لأنهم إنما نهوه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله.

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله ﴿فصل لربك﴾ دون: فصل لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه.

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني، حديث: ٨٧٥٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٥٧٣:

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٩/٢٠٥

(٤) سورة العلق، آية:٩-١٠.

وإضافة ﴿رب﴾ إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به.

ويتعين أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أن أعطاه الكوثر خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له، ألا ترى أنه لم يذكر الأمر بالنحر مع الصلاة في قوله تعالى ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾[1].

ويظهر أن هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صد المشركين إياه عن البيت في الحديبية، فأعلمه الله تعالى بأنه أعطاه خيرا كثيرا، أي قدره له في المستقبل وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ فإنه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب: أفتح هذا؟ قال: نعم.

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير: أن قوله ﴿فصل لربك وانحر﴾ أمر بأن يصلي وينحر هديه وينصرف من الحديبية.

وأفادت اللام من قوله ﴿لربك﴾ أنه يخص الله في صلاته فلا يصلي لغيره. ففيه تعريض للمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.

وعطف ﴿وانحر﴾ على ﴿فصل لربك﴾ يقتضي تقدير متعلقه مماثلا لمتعلق ﴿فصل لربك﴾ لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أي وأبصر بهم، فالتقدير: وانحر له. وهو إيماء إلى إبطال نحر المشركين قربانا للأصنام فإن كانت السورة مكية فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اقترب وقت الحج وكان يحج كل عام قبل البعثة وبعدها وقد تردد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته، وهو يود أن يطعم المحاويج من أهل مكة ومن يحضر في الموسم ويتحرج من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناويا بما تنحره أنه لله.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩٧.

وإن كانت السورة مدنية وكان نزولها قبل فرض الحج كان النحر مرادا به الضحايا يوم عيد النحر ولذلك قال كثير من الفقهاء إن قوله ﴿فصل لربك﴾ مراد به صلاة العيد، وروي ذلك عن مالك في تفسير الآية وقال لم يبلغني فيه شيء.

وأخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالة على أن الضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح مع أن الضأن أفضل في الضحايا وهي لا تنحر وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضح إلا بالضأن تغليب للفظ النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر وليشمل الضحايا في البدن والهدايا في الحج أو ليشمل الهدايا التي عطل إرسالها في يوم الحديبية. ويرشح إيثار النحر رعي فاصلة الراء في السورة. وللمفسرين الأولين أقوال أخر في تفسير ﴿انحر﴾ تجعله لفظا غريبا[1].

ومما يتمم الوقفة عند هذه الآية ما ذكره بعض الباحثين حول الضمائر وأنواعها في هذه السورة، فبينوا أن هذه السورة القصيرة جداً التي عدد كلماتها عشر كلمات، قد اشتملت على كل أنواع الضمائر البارزة والمستترة، المتصل والمنفصلة، قد عدوا ذلك من الإعجاز العددي، وهو في الحقيقة من اللطائف التي يستأنس بها في تحليل هذه السورة العظيمة.

الوقفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾

استئناف يجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا. ويجوز أن تكون الجملة تعليل لحرف (إن) إذا لم يكن لرد الإنكار يكثر أن يفيد التعليل كما جاء في قوله تعالى ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾[2].

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأن المقصود به رد كلام صادر من معين، وحكاية لفظ مراد بالرد، قال الواحدي: قال ابن عباس: إن العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام عند باب بني سهم فتحدث معه وأناس من صناديد قريش في المسجد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٥٧٢/٣٠ - ٥٧٥:

(٢) سورة البقرة، آية:٣٢.

فلما دخل العاصي عليهم قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه فقال: ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ بعد أن مات ابنه القاسم قبل عبد الله فانقطع بموت عبد الله الذكور من ولده صلى الله عليه وسلم يومئذ، وكانوا يصفون من ليس له ابن بأبتر فأنزل الله هذه السورة، فحصل القصر في قوله ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ لأن ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف وهو شانئ النبي صلى الله عليه وسلم، قصر المسند على المسند إليه وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت.

والأبتر: حقيقته المقطوع بعضه وغلب على المقطوع ذنبه من الدواب ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس تشبيها بالدابة المقطوع ذنبها تشبيه معقول بمحسوس كما في الحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر يقال: بتر شيئا إذا قطع بعضه وبتر بالكسر كفرح فهو أبتر، ويقال للذي لا عقب له ذكورا هو أبتر على الاستعارة تشبيه متخيل بمحسوس شبهوه بالدابة المقطوع ذنبها لأنه قطع أثره في تخيل أهل العرف.

ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي صلى الله عليه وسلم فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر، أي لا عقب له لأن العاصي بن وائل له عقب فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو ابن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير. قال ابن حزم في الجمهرة عقبه بمكة وبالرهط.

فقوله تعالى ﴿هو الأبتر﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانئ النبي صلى الله عليه وسلم ونفيها عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل محمد أبتر إبطال لقوله ذلك، وكان عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له تعين أن يكون هذا الإبطال ضربا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه

على خلاف مراده تنبيها على أن الأحق غير ما عناه من كلامه كقوله تعالى ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾[1]. وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو ناقص حظ الخير، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله. وهب أنه لم يولد له البتة، وإنما أصطلح الناس على اعتباره نقصا لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض وقد لا يعرض أو لمحبة ذكر المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أغناه الله بالقناعة، وأعزه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما علمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وفي الآية محسن الاستخدام التقديري لأن سوق الإبطال بطريق القصر بقوله) هو الأبتر(نفي وصل الأبتر عن النبي ﷺ ولكن بمعنى غير المعنى الذي عناه شانئه فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناء على أن ليس الاستخدام منحصر في استعمال الضمير في غير معنى معاده، على ما حققه أستاذنا العلامة سال أبو حاجب وجعله وجها في واو العطف من قوله تعالى ﴿وجاء ربك والملك﴾؛ لأن العطف بمعنى إعادة العامل فكأنه قال: وجاء الملك، وهو مجيء مغاير لمعنى مجيء الله تعالى.

والشانئ: المبغض وهو فاعل من الشناءة وهي البغض ويقال فيه: الشنآن، وهو يشمل كل مبغض له من أهل الكفر فكلهم بتر من الخير ما دام فيه شنآن للنبي صلى الله عليه وسلم فأما من أسلموا منهم فقد أنقلب بعضهم محبة له واعتزازا به[2].

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبترا، فهو ممتد الفروع عميق الجذور، وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر، مهما ترعرع وزها وتجبر، ولقد

---

(١) سورة البقرة، آية:١٨٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٠/٥٧٥-٥٧٧.

صدق فيهم وعيد الله فقد انقطع ذكرهم وانطوى، بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا، وفي كل زمن نشاهد مصداق هذا القول الرباني المتمثل في هذه السورة العظيمة[1].

الخـــاتمـــة:

بعد أن انتهى بنا المطاف مع هذا البحث المختصر، والذي تناولت فيه موضوعاً أحسبه من الموضوعات المهمة في الدراسات القرآنية، بل هو لب التأمل والتدبر لكتاب الله تعالى، فلعلي أكون قد قدمت بعض الإشارات واللمحات التي تكون مصابيح لمزيد من البحوث في هذا المجال الرحب، والمهم في كتاب الله تعالى، وقد تحدثت بشكل موجز وسريع عن دلالة لفظ الإعجاز، وشروطه، وأثره في كتاب الله تعالى، وعن التحدي الذي ورد في القرآن الكريم، كما قدمت نبذة تاريخية سريعة عن مصنفات العلماء في بيان الإعجاز إظهار دلالاته وأسراره، كما أوضحت أساليب دراسة الإعجاز، وسلّطت الضوء على أهمية الدراسة التطبيقية التحليلية التي تعد الثمرة لهذه الدراسة، وقمت بتطبيق نموذج تحليلي لسورة الكوثر وأوضحت ما ذكره علماء اللغة والبيان عن هذه السورة، حيث يتضح لنا بجلاء عظم خصائص البيان القرآني، وأسرار تراكيبه ، وقد أفدت منه كثيراً بحمد الله تعالى.

وقد ظهر لي نتائج طيبة، من أبرزها:

١- أن القرآن الكريم هو المصدر الرحب والمعين الذي لا ينضب في البلاغة والبيان، وحسن نظم الكلام، فقد أعجز العرب الخلّص في جمال أسلوبه وروعة ألفاظه، ولا ريب في ذلك فهو كلام رب العالمين.

٢- أن المنهج التطبيقي في البحث البلاغي الذي يعتمد التحليل والبحث عن الأسرار البلاغية الدقيقة أفضل المناهج، وأكثرها فائدة، وأقربها إلى نفس المتلقي، وهو المنهج الذي سار عليه سلف هذه الأمة، وعرف عند أئمة البلاغة وروادها.

٣- أبان البحث معنى الإعجاز والمعجزة، وشروطها، وأنواعها، والمعجزات الحسية والمعنوية، ووقفة مع آيات التحدي بإعجاز القرآن الكريم، تظهر أسرار التعبير

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٩٨٩/٦.

بتلك الآيات، التي تحدى الله العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

٤- بصورة موجزة عرض البحث أهم مصنفات العلماء الذين صنفوا في الإعجاز القرآني، وبينوا أسراره، وربطوا بين كلام الله تعالى وبين ما أبدع فيه العرب في شعرهم وكتاباتهم، حيث وقفوا على جماليات النص القرآني، وما فيه من معجزات، وبلاغة فائقة..

٥- أوضح البحث مراحل دراسة الإعجاز القرآني، وأنها ثلاث مراحل مرحلة الملاحظات المتفرقة في المصنفات، ومرحلة الضبط عند عبد القاهر الجرجاني، ثم مرحلة التصنيف والتحرير والتبويب، وهناك من يسميها مرحلة الجمود.

٦- أظهر البحث أن هناك دراسة متأنية من لدن علماء البلاغة الذين عنوا بالإعجاز القرآني، من خلال نظم القرآن الكريم، فدرسوا المفردات، مثل اختيار الكلمة، والتعبير بالصيغة، وأسرار التعريف والتنكير، والإفراد والجمع، والتذكير والتأنيث، وكذلك النظر في حروف المعاني ودلالتها، كما أظهر العناية بالجمل والتراكيب، ودلالاتها، سواء في التقديم والتأخر، أو الذكر والحذف، أو الفصل والوصل، وغير ذلك من الأبواب.

٧- قدّم البحث نموذجاً لتحليل اللفظ القرآني، وذلك بالتطبيق على أقصر سور القرآن الكريم، فظهر لنا هذا الإعجاز العظيم الذي لا ينفد مهما تطاولات العصور وتتابع العلماء، فما بالك بكتاب الله تعالى، فكل كلمة في القرآن كبرت أو صغرت فإن فيها من الإعجاز والبلاغة ما ليس في غيرها، مهما اجتمع العرب.والعجم والجن والإنس أن يأتوا بمثلها.

٨- أبرز البحث جوانب مهمة في إعجاز سورة الكوثر، تمثلت في الأمور التالية:

- الربط بين سبب النزول ودلالات الإعجاز، حيث ظهرت دقائق عظيمة في دلالات السورة.
- الربط بين السورة المتقدمة لها في النزول والمتأخرة عنها في الغرض من السورة.
- اتضح بجلاء دلالة افتتاح السورة، وأثر ذلك في الغرض منها.

- اشتملت السورة على كثير من الظواهر الإعجازة، مثل: الضمائر المتنوعة، والصيغ المتعددة.
- دلالة اختيار الصوت في الدلالة على المعنى المراد، وقد ظهر ذلك في صون الهمزة في الآية الأولى.
- يمكن أخذ السورة نموذجاً حياً في الإعجاز العددي وقد تناول ذلك المهتمون بهذا الإعجاز، فيمكن أن يسأنس به دون أن نغفل عن الجوانب الأخرى المهمة من الإعجاز البياني واللغوي في السورة.
- إظهار دلالة الألفاظ في اللغة ومعانيها الواسعة، والتي تمثلت في العطاء، والكوثر، والنحر. ...

سائلاً المولى ألّا يكون هذا الاختصار مخلاً بجوانب هذا البحث، أو أحد مباحثه، وفي الختام أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن ينفعنا بما علمنا إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المصادر والمراجع

- الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم لأبي موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ.
- البحر المحيط لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط:٢،١٤١١هـ..
- البلاغة عند السكاكي ، أحمد مطلوب ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ط١ ، ١٣٨٤ هـ
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، لمحمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ

- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف، ومحمد زغلول، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- التبيان في علوم القرآن ، لمحمد علي الصابوني، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٠م
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٣هـ.
- صحيح الإمام مسلم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، عناية: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- الخصائص ، ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان.
- دلائل الإعجاز ، عبد القهر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى، ١٤٢١ – ٢٠٠١.

- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ.
- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ.
- لمحات في علوم القرآن لمحات، للدكتور محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر لمحمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- النكت إعجاز القرآن للرماني، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف، ومحمد زغلول، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.

• •